مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 520 - 534 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الموازنات النقدية ومكانتها في النقدي العربي القديم

The critical Comparison and its Importance in the Old Arabic Critics

د. حميد قبايلي *

Hamid Kebaili

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

University of Oum El- Bouaghi- Algeria

hamidkebaili1961@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول:2020/10/02	تاريخ النشر: 2020/11/07

ملخص البحث

إنّ قضية الموازنات النقدية من القضايا التي اهتم بها نقادنا القُدامى وأوْلوْهَا أهمية متميزة في مُصنَّفاتِهم النقدية، وهي قضيَّة لها امتداد طويل في تاريخ النقد العربي القديم، لعلّ جذورَها الأولى تعود إلى فكرةِ الطبقات، ولعلَّ نشأتَها ترتبطُ بالطبيعة الإنسانية التي تَنشُد الكمال في الإبداع، وتنطلق من المفاضلة بين الأشياء وُصولا إلى الرقيّ بها نحو الأفضل.

ولعلَّ الذوقَ كان ولا يزال منطلقًا لهذه الموازنات الشعرية، وظلَّت مسألة "أشعر الشعراء" مُسيطرةً خصوصا في مراحل النقد الانطباعي وبداياته، وشكَّلَت هذه المسألة منطلقًا لفكرة الموازنات، وكانت النصوص الأولى في تقويم الأشعار بالأسواق الأدبية شاهدا على تطوّر النقد العربي في مسيرته نحو الكمال والنضج. والموازنة بين الأشعار لون من ألوان النقد ملازم للشعر في كل الأزمنة أو الأمكنة, يتميز بها الرديء من الجيد والقوة ومن الضعف.

الكلمات المفتاحية: الموازنات، النقدية، مكانتها، النقد العربي القديم

Abstract

The issue of the critical comparison is one of the issues concerned by our old critics , and they stressed on it, and they gave it a great importance in their critics , an issue that has a long stretch in the history of the old Arab critics .Maybe the first roots dating back to its inception the idea of layers. Possibly it is linked to the humanitarian nature which seeks to perfection in creativity and it starts from the differentiation between things to promote the better. Perhaps the taste was and still to this POETIC budgets, and remained the issue of the "

* حميد قبايلي. hamidkebaili1961@gmail.com

Best Poet , especially in the critic control stages of the impressionist its toll on civilians, this issue represented a starting point the idea of comparison , the first texts in a calendar notification literary markets witnessed the evolution of the Arab modern critics the journey toward perfection and maturity. The comparison between poem is one of the colors of the critics in all times or places, that makes difference between good and the bad of strength and Weakness.

Keybords: comparisons , critics, it's place , in the old Arabic critics

مقدمة:

لقد شهد العصر الجاهلي صورا مختلفة من صور الموازنة, فالقدماء كانوا يتحاكمون إلى النابغة الذبياني تحت قُبَّته الحمراء في سوق عُكاظ,إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام, وما أكثر الأخبار عن الموازنة بين امرئ القيس والنابغة الذبياني وزهير والأعشى في الجاهلية, وبين جرير والفرزدق والأخطل في الدولة الأموية, وبين أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية ,وبين ابن المعتز وابن رومي,وبين أبي تمام والبحتري في الدولة العباسية وهكذا.

إن فكرة المفاضلة بين الشعراء, قد وُجدت مبكِّرا في النقد الأدبي العربي, و إذا صح ما تناقلته المصادر الأدبية من قصة حُكومة أمِّ جُندُب بين زوجها امرئ القيس وبين عَلقَمة الفحل, وما اشترطته في موازنتها من أن ينظما قصيدتين على نفس الوزن والقافية لكي تحكُمَ بينهما وتتبيَّن أيُّهما أشعر, فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ الجاهليين قد انتبهوا إلى فكرة الموازنة بين الشعراء, وقد نشأت موازنة بسيطة جزئية تنتهي إلى أحكام عامة.

و عرف العصر الحديث شكلا آخر من الموازنات النقدية على غرار ما عرفه النقد العربي القديم وكانت هذه الموازنات بين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل ومطران.

وظلَّت الموازنات حتى أوائل القرن الثالث الهجري على شاكلة موازنة أم جندب, يُفضِّل فيها الموازنون الشاعر على الآخر لأجل بِيْتٍ أجاد فيه, ولأجل قصيدة أبدع فيها , دون أن يَعرضُوا لشعر الشاعر وشعر غيره ،وممَّن يوازنون به بالدرس والتحليل, والمقارنة و التعليل.

ولتسليط الضوء على هذه المسألة النقدية، و محاولة سبر أغْوارها و الكشف عن أسرارها، والوقوف عند حقيقتها، بودِّنا أن نتعرّف على مدلولاتها اللغوية والاصطلاحية ثم نعرِّج على موقف النقاد القُدامى منها من خلال ما نستعرضه من نصوص وشواهد نقدية حول هذه المسألة.

الموازنة في اللغة:

أ- جاء في لسان العرب:

« وَزَن:الوَزْنُ ثَقْلُ شيء بشيءٍ مثلِه كأَوزان الدراهم، وَزَنَ الشيءَ وَزْناً وزِنَةً،قال سيبويه: اتَّزَنَ يكون على الاتخاذ وعلى المطاوعة ،وإنه لحَسَنُ الوِزْنَةِ أَي الوَزْنِ، ويقال للآلة التي يُوزَنُ بها الأَشياء مِيزانٌ أَيضاً ،قال الجوهري: أَصله مِوْزانٌ انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها وجمعه مَوَازين،ووازَنْتُ بين الشيئين مُوَازَنَةً ووِزاناً، وهذا يُوازِنُ هذا إِذا كان على زِنَتِه أَو كان مُحاذِيَهُ »[1]

ب-وورد في معجم مقاييس اللغة:

« وَزَن: الواو والزاي والنون: بناءٌ يدلُّ على تعديلٍ واستقامة: ووَزَنْتُ الشّيءَ وزْناً. والزِّنَة قَدرُ وزنِ الشَّيء؛ والأصل وَزْنَة، ويقال: قام مِيزانُ النَّهار، إذا انتصَفَ النَّهار، وهذا يُوازِنُ ذلك، أي هو مُحاذِيه، ووَزِينُ الرَّأْيِ: مُعتدِلُه ، وهو راجحُ الوَزْن: إذا نسَبُوه إلى رَجَاحة الرَّأْي وشِدَّة العقْل»[2].

ج- و جاء في المعجم الوسيط:

«وَزَن الشيءَ يَزِن وزنًا وزِنَة :رجح ،والشيءَ :قدَّره بوساطة الميزان ،ورفعه بيده ليعرفَ ثقلَه وخفّتَه وقدْره ، ووزنَ الشعرَ: قطَّعه وميَّز بين ثقله وخفّتِه ونظمِه موافقا للميزان العروضي، ووازن بين الشيئين مُوازنَةً ووِزْانًا :سَاوَى وعَادلَ ،والشيءَ بالشيءَ: سَاوَاه في الوزنِ وعادلَه وقابلَه وحَاذاه وفُلانًا: كَافَأَه على فِعَالِه، و اتّزن:العدل اعتدل بالآخر وصار مُساويًا له في الثِّقل والخفَّة، والشيئان تَسَاوَيَا في الوزن، وفلان الدَّراهِم :أخَذها بعد الوزن».[3]

د- وورد في معجم مقاييس اللغة:

« وَزَن: الواو والزاي والنون: بناءٌ يدلُّ على تعديلٍ واستقامة: ووَزَنْتُ الشّيءَ وزْناً. والزِّنَة قَدرُ وزنِ الشَّيء؛ والأصل وَزْنَة، ويقال: قام مِيزانُ النَّهار، إذا انتصَفَ النَّهار، وهذا يُوازِنُ ذلك، أي هو مُحاذِيه، ووَزِينُ الرَّأْيِ: مُعتدِلُه ، وهو راجحُ الوَزْن: إذا نسَبُوه إلى رَجَاحة الرَّأْي وشِدَّة

العقْل »[4].

الموازنة في الاصطلاح:

أ- ورد في معجم التعريفات:

« الموازنة: هو أن يتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية ، فإن المصفوفة والمبثوثة متساويان في الوزن دون التقفية، ولاعِبرة بالتاء، لأنها زائدة »[5]

وهذا هو المعنى البلاغي للموازنة، ولا يخرج معظم كلام البلاغيين عما لخَّصه القَزْوِينِي، وتبعه فيه شُرّاح التلخيص.

والموازنة في عُرف النُّقَّاد هي: « المفاضلة بين شاعرِيْن أو كاتِبيْن، أو عَملَيْن أدَبِيَيْن أوأكْثَر للوصولِ إلى حكمٍ نقديٍّ »[6].

والموازنة في الأدب هي: « إقامة مُقارنةٍ بين أدِيبَيْن أو أثَرَيْن أدَبيَيْن أو فِكرتَيْن »[7].

أولا الموازنة بين الشعراء عند الأمدي"ت 371 هـ":

يُعدُّ الآمدي من النقّاد القُدامى الذين اهتموا بقضية الموازنة في النقد العربي القديم ، وقد أفرد لها كتابا خاصًّا سمَّاه الموازنة،هذا الكتاب المتميِّز الذي يُعدُّ« وثبةً في تاريخِ النقد العربي، بما اجتمع له من خصائصَ لا بما حقَّقَه من نتائجَ ، ذلك لأنَّه ارتفعَ عن سَذاجةِ النَّقدِ القائمِ على المفاضلةِ من "الطّبيعةِ" وَحدها دون تعليلٍ واضحٍ، فكان مُوازنةً مدروسةً مؤيَّدةً بالتفصيلاتِ التي تُلِمُّ بالمعاني والألفاظ و الموضاعات الشعريَّة بفروعها المختلفَةِ...ولهذا جاء بحثًا في النقد واضحِ المنهَجِ ، ليس فيه إلّا اليسيرُ من الاستِطْراداتِ الجزئية »[8].

وقد أبان الآمدي عن منهجه في الموازنة في مقدِّمة الكتاب قائلا:

« وأنا أبتدئُ بذكرِ مَساوئِ هذين الشاعرين؛ لأختمَ بذكرِ محاسنِهما، وأذكرَ طرفاً من سرقاتِ أبي تمَّام، وإحالاتِه، وغلطِه، وساقِط شعرِه، ومَساوِئِ البُحتُريّ في أخْذِ ما أخذَه من مَعانِي أبي تمَّام، وغيرِ ذلك من غلطٍ في بعض مَعانيه، ثم أوزانٍ من شِعريْهما بين قصيدتين إذا اتَّفقتَا في الوزنِ والقافية وإعرابِ القافية، ثُمَّ بين معنًى ومعنىً؛ فإنَّ محاسنهَما تظهرُ في تضاعيفِ ذلك، ثم أذكر ما انفرد به كلُّ واحدٍ منهما فَجوَّده من معنى سلكَه ولم يسلكْه صاحبُه، وأُفردُ بابًا لما وقعَ في شِعريْهما من الشَّبيه، وبابًا للأمثال، أختِم بهما الرِّسالة، وأُتبعُ ذلك بالاختيار المجرَّد من شِعريْهما،

وأجعلُه مؤلَّفاً على حُروف المعجَم؛ ليقربَ مُتناولُه، ويَسهُلَ حِفظُه، وتقعَ الإحاطةُ به، إن شاء الله تعالى»[9].

والجديد في هذا الكتاب ، أنّ الآمدي لم يكتفِ بالموازنة بين الشاعرين أبي تمام والبحتري بل تجاوز ذلك إلى الحديث عن الشعراء الآخرين، فإذا تحدَّث عن مسألة نقدية ما فإنه يعمّمها ويوازن بين الجميع حتى تكتسب موازنته طابع الموسوعية وتعمّ الجميع عبر مختلف العصور.

إنّ الآمدي في كتابه الموازنة « لا يقف عند مجرّد المفاضلة بين الشاعرين، بل يتعدَّاهما إلى إيضاح خصائص كلٍّ منهما ، وما انفرد به دون صاحبه أو دون غيره من الشعراء، وقد تمثَّل ذلك من خلال توضيحه مذهبَ كلّ من الشاعرين »[10].

وعن هذه المفاضلة يُحدِّثنا الآمدي قائلا:

«ووجدتُّهم فاضَلُوا بينهما"أبي تمَّام والبُحتُري" لغزَارة شِعريْهما ،وكثرة جيِّدهما وبدائعِهما، ولم يتَّفقوا على أيّهما أشعر، كما لم يتَّفقوا على أحدٍ ممَّن وقع التفضيلُ بينهم من شعراء الجاهلية والإسلام والمتأخرين، وذلك كمن فضَّل البُحتريَّ، ونسَبَه إلى حَلاوةِ اللَّفظ، وحُسْنَ التخلُّص، ووضعَ الكلامَ في مواضعِه، وصحَّة العبارةِ، وقُربَ المآتي، وانكشافِ المعاني، وهم الكتَّاب والأعرابُ والشعراءُ المطبوعُون وأهلُ البلاغة، ومثلَ من فضَّل أبا تمامٍ، ونسَبه إلى غُموض المعاني ودِقَّتِها، وكثرةِ ما يُورد ممَّا يحتاجُ إلى استنباطٍ وشرحٍ واستخراجٍ، وهؤلاء أهلُ المعانِي والشعراءُ أصحابُ الصَّنعة ومن يَميلُ إلى التَّدقيقِ وفلسفيِّ الكلام. وإن كان كثيرٌ من الناس قد جعلهما طَبقةَ، وذهبَ إلى المساواة بينهما. وإنَّهما لمختلفان، لأنَّ البحتريَّ أعْرابِيُّ الشعر، مطبوعٌ، وعلى مذهبِ الأوائل، وما فارقَ عَمودَ الشعر المعروفِ، وكان يتجنَّبُ التَّعقيدَ ومُستكرَهَ الألفاظِ ووحشيِّ الكلام؛ فهو بأن يُقاسَ بأشْجَع السُّلَّمي ومنصور وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أَوْلى، ولأَ أبا تمام شديدُ التكلُّف، صاحبُ صنعةٍ، ومُستكرَه الألفاظِ والمعاني وشعرُه لا يُشبه أشعارَ الأوائل، ولا على طريقتِهم؛ لِما فيه من الاستعاراتِ البعيدة، والمعاني المولَّدة، فهو بأن يكون في حِيز مُسلم بن الوليد ومن حَذَا حذوَه أحقُّ وأشبهُ، وعلى أنِّي لا أجد من أقرِنُه به، لأنَّه ينحطُّ عن دَرجةِ "مُسلمٍ"لسلامةِ شعر"مُسلم" وحسنِ سبْكهِ وصحَّة معانيه، ويرتفِعُ عن سائر منْ ذهبَ هذا المذْهبَ، وسلَكَ هذا الأسلوبَ؛ لكثرة محاسنِه وبدائعِه واختراعاتِه»[11].

ويُجمِل إحسان عباس[12] القضايا النقدية التي تناولها الآمدي في كتابه القيّم الموازنة في ثلاث، وهي:

- الكشف عن السرقات: فقد عدَّ لأبي تمام مئة وعشرين"120" بيتا أخذ معانيها عن الشعراء،ثم ناقش أبي طاهر في ما عدَّه من سرقات أبي تمّام فصحَّح له واحدا وثلاثين "31" بيتا أيّده في أنها مسروقة،ثمّ عدَّ للبحتُري ثمانية وعشرين "28" بيتا أخذها عن غير أبي تمام، وأربعة وستين" 64" موضعا أخذ معانيه عن أبي تمام، وناقش أبا الضياء فيما خرّجه من سرقات البحتري، وردَّ عليه،ودافع عن البحتري.

- القراءة الدقيقة: والغاية منها الكشف عن الخطأ في استعمال الألفاظ والمعاني، وقد سار الآمدي في هذا التدقيق إلى أبعد الحدود، وكان يعلم أن القراءة الدقيقة لا بدَّ لها من الوقوفِ على الرِّواية الأصلية، ولذلك اعتمد الرّجوع إلى الأصول من ديوان أبي تمام.

وهي أهم الأركان وأكبرها وأجلُّها من تأليف هذا الكتاب، وتتم على النحو الآتي:

- أخذ معنيين في موضعين مُتشابهين
- تبيان الجيِّد والرديء مع إيراد العِلّة
- تبيان الجيِّد والرديء دون إيراد عِلَّة لأن بعض الجودة والرداءة لا يُعلَّلُ
- إصدار الحكم بأن هذا أشعر من ذاك في هذا المعنى دون إطلاق الحكم النهائي العام، وهو" أيهما أشعر على الإطلاق.

ويشير محمد مندور إلى قيمة موازنة الآمدي، ومكانتها في النقد العربي، حيث يقول« لم يُكتب مثلُها في النقد العربي، ومنه نرى منهجَ المؤلِّف المستقيم، إذ يتَّبعُ سيرَ القصيدة ديباجةً فخروجًا فمديحًا، وهو في كلِّ جزءٍ من هذه الأجزاء الثلاثةِ يفصلُ المعاني، ويميِّز بينها بحيث لا نَظنُّنَا كُنَّا مبالغين في شيء عندما قلنا:إنَّ هذه الموازنة يمكن اعتبارُها موسوعةً في الشعر العربي منقطعةَ النَّظير».[13]

ثانيا الموازنة بين الشعراء عند القاضي الجرجاني "ت 392 هـ"

لقد نشأت الموازنات النقدية بسيطة وغير معلّلة، وقد كان منطلقُها كتب الطبقات،مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجُمحي، ثم اقتربت هذه الموازنات من النقد المنهجي مع الآمدي في كتابه" الموازنة بين الطائيين" الذي رسم فيه الكثير من المقاييس النقدية والمعايير الفنية

للمفاضلة بين الشعراء. وبمجيء الجرجاني في نهاية القرن الرابع الهجري الذي أشار في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" إلى الكثير من الآراء حول المفاضلة بين المتنبي وخصومه ومحاولة لتأصيل الشعر الجيد من ما ساقه من نماذج من الشعر العربي القديم .

ففي موازنة للجُرجاني بين غزل شعر أبي تمّام و بين بعض الأعراب، يقول:

« وقد تغزَّل أبو تمام فقال:

دعْني وشُربَ الهوى يا شاربَ الكاسِ ... فإنني للذي حَسيْتَه حَاسِي

لا يُوحِشنّك ما استعجمْتَ من سَقَمي ... فإنّ منزلَه من أحسَنِ النَّاس

من قطْعِ ألفاظِه توصيلُ مَهلكَتي ... ووصْلِ ألْحاظه تقطيعُ أنْفَاسِي

متى أعيشُ بتأميلِ الرّجاءِ إذا ... ما كان قطعُ رجَائي في يديْ يَاسي

فلم يخْلُ بيتٌ منها من معنىً بديعٍ وصَنعةٍ لطيفةٍ؛ طابقٍ وجانِسٍ، واستَعارَ فأحسَن، وهي معدودة في المختار من غزَله. وحُقّ لها؛ فقد جمعت على قصرِها فنوناً من الحُسن، وأصنافاً من البديع، ثم فيها من الإحْكام والمتانة والقُوّة ما تراه؛ ولكنّني ما أظنك تجدُ له من سَورة الطّرب، وارتياحِ النفس ما تجده لقول بعض الأعراب:

أقول لصاحبي والعيسُ تهوي ... بنا بين المنيفة فالضِّمار

تمتّعْ من شَميم عَرارِ نجْدٍ ... فما بعْد العشيّة من عَرارِ

ألا يا حبّذا نفَحاتُ نجْدٍ ... وريّا روضهِ غِبَّ القِطارِ

وعيشك إذ يحُلّ القوم نجْداً ... وأنتَ على زمانِك غيرُ زارِ

شُهورٌ ينقضين وما شعرْنا ... بأنْصافٍ لهنّ ولا سِرارِ

فأما ليلُهنّ فخيرُ ليلٍ ... وأقصر ما يكون من النهار

فهو –كما تراه – بَعيدٌ عن الصَّنعة، فارغُ الألفاظِ، سهلُ المأخذِ، قريبُ التناول.

وكانتِ العربُ إنما تُفاضلُ بين الشعراء في الجودةِ والحُسنِ بشرفِ المعنَى وصحّتِه، وجزالةِ اللفظِ واستقامتِه، وتُسلّمُ السّبْقَ فيه لمنْ وصفَ فأصابَ، وشبّه فقاربَ، وبدَهَ فأغزَرَ، ولمن كثُرت سوائرُ أمثالِه، و شواردُ أبياته؛ ولم تكنِ تعبأُ بالتَّجنيسِ والمطابقةِ، ولا تحفِل بالإبداعِ والاستعارةِ إذا حَصلَ لها عمودُ الشعرِ، ونظامُ القريضِ»[14].

وفي موازنة الجُرجاني بين القدامى والمحدثين الذين يميل إليهم في الكثير من أحكامه النقدية تمهيدا لنُصرة المتنبي والدفاع عنه أمام خصومه الذين يُؤثرون عنه الفُحول والمطبوعين من الشعراء القدامى، وخلاصة قول الجرجاني أنّ الشعر المحدثَ إلى طباعِ أهل العصر، يقول الجرجاني في ذلك: « وإنما أحلْتُك على البحتريّ؛ لأنه أقرب بنا عهْداً، ونحن به أشد أُنساً، وكلامه أليق بطباعِنا، وأشبه بعاداتنا؛ وإنما تألَف النّفس ما جانَسها، وتقْبل الأقرب فالأقْرب إليها. فإن شئت أن تعرِف ذلك في شعرٍ غيره كما عرفتَه في شعره، وأن تعتبر القديمَ كاعتبارِ المولَّد فأنشد قول جرير:

ألا أيها الوادي الذي ضمّ سيلُه ... إلينا نوى ظَمياءَ حُيّيتَ وادِيا

إذا ما أراد الحيّ أن يتفرّقوا ... وحنّت جِمالُ الحيّ حنّت جِماليا »[15]

وفي معرض موازنته بين شعر ابن الرومي والمتنبي يقول الجرجاني:

« وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيلَ ابن الرومي ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرئ القصيدة من شعره، وهي تناهزُ المائة أو تُربي أو تُضعِف، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يَرُوقُ أو البيتين؛ ثم قد تنسلخُ قصائدُ منه، وهي واقفةٌ تحت ظِلِّها، جاريةٌ على رِسلها؛ لا يحصُلُ منها السامعُ إلا على عددِ القوافي وانتظارِ الفراغ، وأنتَ لا تجدُ لأبي الطّيب قصيدةً تخلو من أبياتٍ تُختاَر، ومعانٍ تُستفَاد، وألفاظٌ تروقُ وتعذُب، وإبداعُ يدلّ على الفِطنة والذَّكاء، وتصرُّفٌ لا يَصدُر إلا عن غزارةٍ واقتدارٍ»[16].

وقد رأى الجرجاني في نفسه ناقدا مؤهَّلا ليتوسَّط بين الفريقين :مؤيِّدي المتنبي وخصومه،فاعتمد في وساطته مبدأ "المقايَسَة" على حدِّ تعبير إحسان عباس الذي يشير قائلا:

« فالناقد الذي يتحرَّى الإنصاف قبل أن يُفرِدَ عيوبَ شاعرٍ أو حسناتِه بالتمييز، عاليه أن يقيسَه على ما كان في تاريخِ الشعر والشعراءِ،يستهجنُ فلا خطأَه في اللفظِ،لأنَّ قلَّما تجدُ شاعرا سلِمَ من هذا الخطأِ، ولا يستنْكِرُ خطأَه في المعنى، فكمْ عدَّدَ العلماءُ من صُنُوفِ هذا الخطأِ في شعرِ الأقدَمينَ، ولا يُسْقِطُهُ بسبب التفاوتِ في شعرِه، وليَنْظُرْ إلى أكابرِ الشعراءِ مثل أبي نوَّاس وأبي تمَّام، وليَحْكُمْ هل خلا شعرهُم من تفاوُتٍ»[17].

كما وازن الجرجاني بين انحِطاطِ شعرِ أبي نوَّاس وارتفاعِه، فقال:

« ولو تأمَّلْتَ شعرَ أبي نوَّاس حقّ التأمُّل، ثم وازنْتَ بين انحطاطِه وارتفاعِه، وعَدَدْتَ مَنفيَّه و مُختارَه، لعظّمتَ من قدْرِ صاحبِنا ما صغَّرْتَ، ولأكبَرْتَ من شأنِه ما استحقَّرْتَ، ولعَلِمْت أنَّك لا تَرى لقديمٍ ولا مُحدَثٍ شعراً أعمَّ اختلالاً، وأقبحَ تفاوُتاً، وأبينَ اضْطِراباً، وأكثرَ سَفْسَفَةً، وأشدَّ سُقوطاً من شعرِه هذا؛ وهو الشَّيخ المقدّمُ والإمامُ المفضّلُ الذي شَهِد له خلَف وأبو عُبيدة والأصمَعِي، وفسَّر ديوانَه ابنُ السكِّيت؛ فهل طَمَستْ مَعايبُه مَحاسِنَه؟ وهل نَقص رديُّه من قَدَر جيِّده؟»[18].

ثالثا الموازنة عند ابن الأثير"ت637هـ":

يعرض ابن الأثير إلى الموازنة بين الشعراء من خلال كتابه:" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" ويكتفي بثلاثة شعراء دون سواهم، وهم:أبو تمّام والبحتُري والمتنبّي، ويجعل منهم المثال والأنموذج، ثم يعلِّل سبب الاختيار ويذكر محاسن كل شاعر على حِده فيقول:

«وقد اكتفيْتُ في هذا بشعرِ أبي تمّام "حبيب بن أوس"، وأبي عُبادة الوليد "البحتُري" وأبي الطيب المتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم "لاَتُ الشعرِ وعُزَاه ومَناتُه "[19] الذين ظهرتْ على أيديهم حسناتُه ومُستحسناتُه، وقد حوَتْ أشعارُهم غَرابةَ المحدثين إلى فصاحةِ القُدماء، وجمعتْ بين الأمثال السائرة وحِكمة الحُكماء »[20].

فعن أبي تمّام يقول ابن الأثير:

« أمّا أبو تمام فإنه ربُّ معانٍ وصقيلُ ألبابٍ وأذهانٍ، وقد شُهِد له بكلِّ معنًى مبتَكَرٍ لم يمشِ فيه على أثر، فهو غيرُ مُدافعٍ عن مقام الإغْرابِ الذي برز فيه على الأضراب، ولقد مارستُ من الشعر كلَّ أوَّلٍ وأخيرٍ، ولم أقُلْ ما أقولُ فيه إلاَّ عن تنقيبٍ و تنقيرٍ، فمن حفِظَ شعرَ الرَّجُل، وكشفَ عن غامضِه، وراضَ فكرَه برائضِه، أطاعتْه أعِنَّة الكلامِ، وكان قولُه في البلاغة ما قالت "حَذَامِ"[21] ، فخُذْ منِّي في ذلك قولَ حكيمٍ وتعلَّمْ ففوق كُلِّ ذي علمٍ عليمٌ»[22].

وعن البحتري يقول ابن الأثير:

« وأمَّا أبو عُبادةُ البُحتُري، فإنه أحسنُ في سبكِ اللَّفظِ على المعنَى، وأراد أن يشعُرَ فغنَّى، ولقد حازَ طَرَفَيْ الرقَّةِ والجزالةِ على الإطلاق، فبينا يكون في شظفٍ، نجد إذ تشبَّث بريفِ العراق، وسُئل أبو الطيب المتنبي عنه ،وعن أبي تمام ،وعن نفسه، فقال:أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البُحتري ولعَمْري إنه أنْصفَ في حُكمه ،وأعربَ بقولِه هذا عن متانةِ علمه، فإن أبا عُبادة أتى في

شعرِه بالمعنى المقدُود من الصَّخرة الصماَّء في اللفظ المِصوغِ من سَلاسة الماءِ، فأدركَ بذلك بُعد المرامِ مع قُربِه إلى الإفهام، وما أقول إلاَّ أنَّه أتَى في معانيهِ بأخلاطِ الغاليةِ، ورقَى في ديباجةِ لفظِه إلى الدَّرجَةِ العاليةِ »[23].

وعن المتنبي يقول ابن الأثير:

« وأمَّا أبو الطيِّب المتنبِّي فإنه أرادَ أن يسلُكَ مسلكَ أبي تمَّام فَقصُرت عنه خَطاه، ولم يُعطِه الشعرُ من قِيادِه ما أعطاهُ لكنَّه حَظِيَ في شعرِه بالحُكمِ والأمثالِ، واختصَّ بالإبداعِ في وصفِ مواقفِ القتالِ وأنا أقولُ قولاً لستُ فيه متأثِّمًا ولا منه متلثِّما، وذاك أنه خاضَ في وصفِ معركةٍ كان لسانُه أمْضَى من نِصالِها، وأشجعَ من أبطالِها، وقامت أقوالُه للسَّامع مقامَ أفعالِها حتى تظنَّ الفريقيْن قد تقابلا والسِّلاحيْن قد تواصَلا، فطريقُه في ذلك تَضِلُّ بسالكِه، وتقومُ بعُذر تاركِه، ولا شكَّ أنه كان يشهدُ الحُروبَ مع سيفِ الدَّولة ابن حمدان فيصفُ لسانُه ما أدَّى إليه عِيانُه، ومع هذا فإني رأيتُ النَّاسَ عَادلِين فيه عن سُننِ التوسُّط، فإمَّا مُفرِطٌ في وصفِه وإمَّا مفرِّطٌ ، وهو وإن انفردَ بطريقٍ صار أبا عُذره فإنَّ سعادةَ الرَّجُل كانت أكبرَ من شعرِه،وعلى الحقيقةِ فإنَّه خاتَم الشعراء، ومهمَا وُصف به فهُو فوقَ الوَصف وفوقَ الإطْرَاءِ »[24].

يتَّهم إحسان عبّاس ابن الأثير بالجرأة و الغُرور والاعتدادِ بالنَّفس، حيث يقول عنه:

« ولا ريب في أنّ الجرأة والاعتدادَ بالنفسِ اللّذين يَبلُغانِ لديه حدَّ الغُرور قد كانا سِتاراً يَحجُب بهما ضُعفَ تحصيلِه الثَّقافي، وعدم تنوُّعه، فهو قد قرأ كثيراً من الشعر، واطَّلع على كثيرٍ ممَّا أُلِّفَ في النَّقدِ والبلاغةِ، ثمَّ انهمكَ من خلال ذلك كُلِّه في شق طريقِه في الترسُّل»[25].

رابعا الموازنة بين الشعراء عند حازم القرطاجني "ت 684 هـ":

أشار حازم القرطاجني إلى المفاضلة بين الشعراء من خلال كتابه منهاج البلغاء، حيث يقول:

« إنَّ المفاضلةَ بين الشُّعراء الذين أحاطُوا بقوانينِ الصِّناعة ، وعرفوا مذاهبَها لا يمكنُ تحقيقَها، ولكن إنَّما يُفاضَل بينَهم على سبيلِ التَّقريب وترجيحِ الظُّنون. ويكونُ حكمُ كلِّ إنسان في ذلك بحسَب ما يلائمُه ويميلُ إليه طبعُه، إذ الشِّعرُ يختلفُ في نفسه بحسَب اختلافِ أنماطِه وطُرقِه، ويختلفُ بحسَب اختلافِ الأزمانِ، وما يُوجد فيها مما شأنُ القولِ الشعريِّ أن يتعلَّق به، ويختلفُ بحسَب اختلافِ الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يُوصف، ويختلفُ بحسَب الأحوال،

وما تصلُح له ،وما يليقُ بها ، وما تُحمَل عليه، ويختلفُ بحسَب اختلافِ الأشياء فيما يَليقُ بها ، وما تُحمل عليه، ويختلفُ بحسَب اختلافِ الأشياء فيما يليقُ بها من الأوصافِ والمعانِي، ويختلفُ بحسَبِ ما تختصُّ به كلُّ أمَّة من اللُّغة المتعارفة عندها الجَاريةُ على ألسنتِها»[26]

قرَّر حازم القرطاجني في سياق المفاضلة بين الشعراء جملة من المبادئ والحقائق[27] بعد أن نظر في أحوال الشعر والشعراء، وهي:

ولأنَّ الشعر يختلف بحسَب اختلافِ أنماطِه وطُرقِه نجد شاعرًا يُحسِن في النَّمط الذي يُقصَد فيه الجزالةُ والمتانةُ من الشعر، ولا يُحسن في النّمط الذي يُقصد به اللَّطافة والرِّقةُ، وآخر يُحسنُ في النَّمط الذي يُقصد به اللَّطافةُ والرقة ولا يحسن في النمط الذي يقصد به الجزالةُ والمتانة. و نجد بعضَ الشعراء يُحسن في طريقةٍ من الشعرِ كالنَّسيب مَثلاً، ولا يُحسن في طريقةٍ أخرى كالهجاءِ مَثلا، وآخر يكون أمرُه بالضدِّ من هذا.

ولأنَّ الشعر أيضاً يختلفُ بحسَب اختلافِ الأزمانِ ، وما يُوجد فيها ، وما يُولع به الناس مما له عَلقةٌ بشؤونهم، فيصِفُونه لذلك ، ويُكثرون رياضةَ خواطرِهم فيه، نجِد أهلَ زمان يُعنُون بوصفِ القيانِ والخمرِ، وما ناسبَ ذلك ويُجيدون فيه، وأهلُ زمانٍ آخر يَعنون بوصفِ الحروبِ والغاراتِ وما ناسبَ ذلك ، ويُجيدون فيه، وأهلُ زمانٍ آخر يُعنون بوصف نيرانِ القِرَى وإطعامِ الضيف وما ناسب ذلك ويُجيدون فيه.

ولأنَّ الشعر أيضاً يختلف بحسَب اختلافِ الأمكنةِ وما يُوجد فيها مما شَانُه أن يُوصفَ من الأشياء المصنوعة أو المخلوقة – وكل يدخل تحت المخلوقة ولكن الناس قد فرقوا هذه التفرقة – نجد بعض الشعراء يُحسن في وصفِ الوحشِ، وبعضُهم يُحسنُ في وصفِ الرَّوض، وبعضُهم يُحسِن في وصفِ الخمرِ، وكذلك في وصفِ شيء فإنَّهم يَختلفون في الإحسان فيه ، ويَتفاوتُون في مُحاكاتِه ووصفِه على قَدَر قَوَّة ارتسامِ نُعوت الشَّيءِ في خَيالاتهم بكَثرةِ ما أَلِفوه وما تأمَّلوه.

ولأنَّ الشعر أيضاً يختلفُ بحسَب اختلافِ أحوالِ القائلين، وأحوالِ ما يتعَرَّضُون للقولِ فيه، وبحسَب اختلافِهم في ما يَستعملُونه من اللُّغات، نجدُ واحدًا يُحسِن في الفخرِ ولا يُحسِنُ في الضَّراعةِ، وآخرُ يُحسِن في الضَّراعَةِ ، ولا يُحسِنُ في الفخر؛ ونجد واحدًا يُحسِن في مدحِ الطّبقات الأعْلَيْنَ، وآخرُ لا يُحسِن إلاَّ في أمْداحِ الطَّبقات الأدْنَيْنَ، ونجد واحدًا يُحسِن في النَّظمِ المصُوغِ من الألفاظِ الحُوشيَّة والغريبةِ ، وآخرُ لا يُحسِن إلَّا في نَظْمِ اللُّغاتِ المستعمَلَة.

وأكَّدَ حازم أنَّه لا مجالَ للمفاضلة بين فريقين من الشعراء، فريق توافرت لهم الأسبابُ المهيِّئةُ لقول الشعر والأسباب الباعثة على ذلك، وفريق لم يتوافر لهم ذلك، فقال:

« فأما المفاضلة بين جماهير شعراء توفرت لهم الأسباب المهيئة لقول الشعر والأسباب الباعثة على ذلك، وقد أومأت إليها في صدر الكتاب، وبين جماهير شعراء لم تتوفر لهم الأسباب المهيئة ولا البواعث، فلا يجب أن نتوقف فيها بل نحكم حكما جزما أن الذين توفَّرت لهم الأسبابُ المهيِّئة والباعثةُ أشعرُ من الذين لم تتوفَّرْ لهم. وذلك كما تَفضُل شعراءُ العراق على شعراءِ مصر. ولا نتوقف في ذلك، إذ لا مُناسبة بين الفريقين في الإحسان في ذلك، كما لا تناسُبَ بينهم في توفُّر الأسباب، وإن كان أكثرُ تلك الأسبابِ أيضاً في الصّقع العراقي قد تغيَّر عما كان عليه في الزمان المتقدِّم»[28].

خاتمة:

لقد شهد العصر العباسي تطورا معتبرا في الأدب ونقده، وعرف الكثير من الجدل في المسائل النقدية الناشئة وأسال الكثير من الحبر حولها :كثنائية اللفظ والمعنى وقضية عمود الشعر والسرقات والصدق والكذب وقضية الموازنات النقدية التي أشارإليها الآمدي في كتابه" الموازنة بين الطائيين ".

وخلاصة القول: فإننا لا نجد ناقدا انتظَمت عنده أسُسُ المفاضلة بين الشعراء مثل الآمدي ،ومن هنا فلعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا:إن الموازناتِ منذ وُجدت إلى أن صنَّف الآمدي كتابه "الموازنة بين الطائيين" كانت موازنات جزئية، غالبا ما تُقام بين بيت وآخر ،وبين قصيدة وأخرى , وأما الموازنة بين شاعرين في شِعريهما ، واستقصاء كل ما يتصل به من جَودةِ وإساءة مُقارنةً بأشعار غيرهما، فذلك أمر لم يُسبق إليه الآمدي ولعلَّنا لا نخطئ إذا قلنا: إنه رائد هذا النوع من التأليف. وقد وضع الآمدي بعض الشروط النقدية في كتابه"الموازنة " التي يقيس بها عمل الشاعرين وهو من أوائل النقاد الذين بادروا إلى لمقارنة بين شاعرين أبي تمام والبحتري ؛لبيان الاختلافات الجوهرية بينهما،وما يمتاز به كلّ منهما في صفاته وخصائصه..

وأمّا الموازنة عند الجرجاني فقد وضع لها مقاييس صارمة للحكم على جودة الشعر أو رداءته التي أشار إليها في كتابه "الوساطة".

ونختتم الحديث عن قيمة وساطة الجرجاني وموازنته النقدية في النقد العربي القديم برأي ناقدٍ خبيرٍ من النقاد المحدثين، وهو محمد مندور الذي نظر إلى منهج الجرجاني في النقد على أنُه« لا يُناقشُ الأخطاء وإنَّما يعتذر لهَا، والجرجاني مدافعٌ يذودُ عن موكِّلِه، لا ناقدٌ يناقشُ ما أُخذَ على الشاعر من أخطاء أو عيوبٍ فنيَةٍ »[29].

وأمّا الموازنة عند ابن الأثير بالرغم من كونها وصفية شاملة إلا أنّها تُعد محاولة لكشف خصائص الشعراء الذين تناولهم:أبو تمام والبحتري والمتنبي.

أمّا الموازنة عند حازم القرطاجني فقد أجاب فيها عن الكثير من القضايا النقدية خصوصا في ما يتعلَّق بالمفاضلة بين الشعراء، وأسهب في الحديث عن التفصيلات لتأثره بالمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية. وتتَّسِم رؤية حازم بالكثير من الشمولية، « و يُجيب على أكثر المشكلات الهامَّة التي عرضت للنقد على مرِّ الزمن، من خلال منهجٍ قائمٍ على نوعٍ من المنطق الخاص بصاحبه، ولكنه منهجٌ شُمولي أيضا لا يَغفِل أبدَا ثلاثية هامّة كان النقاد يكتفون بالنظر إلى واحدٍ دون الآخر من ضُلوعها، وتلك هي:" الشاعر والعمليّة الشعريّة و الشعر" وقد أوْلى حازم هؤلاء الثلاثة عناية متساوية على التقريب»[30].

هوامش:

[1] – ابن منظور :لسان العرب، مادة: تحقيق محمد الصادق العبيدي وأمين عبد الوهاب،دار إحياء التراث العربي بيروت،ط1، مادة " و ز ن"

[2] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 1979، مادة:" و ز ن"

[3] – المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية: ، نشر دار الدعوة، مادة:" و ز ن"

[4] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة:" و ز ن"

[5] – الجرجاني: التعريفات: تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، مصر،" مادة و ز ن"،ص200

[6] – أحمد مطلوب:معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون،ط1، 2001، ص412

[7] – إميل بديع يعقوب وميشال عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت،ط1، 1987. ص1215

[8] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر، عمان، ط1، 2006، ص145

[9] – الآمدي: الموازنة بين الطائيين، تحقيق السيد أحمد سيد صقر، ،دار المعارف، القاهرة ،ط4، 1965، ج1،ص54

[10] – حسين الجداونة: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية وللنشر والتوزيع، الأردن،ط 1،2012،ص 250-251

[11] – الآمدي: الموازنة بين الطائيين ، ج1، ص ص4-5

[12] – يُنظر: إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص164-168

[13] – محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1996 ،ص355

[14] – الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ،بيروت، ط1، 2006، ص37-38

[15] – الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص34

[16] – الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص55

[17] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص309

[18] – الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص56

[19] – إشارة إلى آلهة العرب في الجاهلية: اللّات والعُزّى ومَناة، وقد ذكرها القرآن الكريم:
"أفرأيتم اللأتَّ والعزَّى،ومناة الثالثة الأخرى"سورة النجم، الآيتان: 19-20

[20] – ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ج2،ص348

[21] – إشارة إلى المثل العربي: " اذا قالت حَذَامِ فصدقوها ... إن القول ما قالت حَذَام"
حَذَام هي زوجة لجُيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وكانت صادقة شديدة الذكاء ترى الرأي فلا تخطيء، وتظن فيأتي الأمر كما توقعت، فكان زوجها يثق في صدقها وقوة إدراكها، و يحكى أن عاطس بن الجلاح الحِميري صار إلى قومها في جموع فاقتتلوا، ثم رجع الحميري إلى معسكره وهرب قومُها، فساروا ليلتهم ويومهم إلى الغد، ونزلوا الليلة الثانية، فلما أصبح الحميري ورأى جلاءهم اتبعهم، فانتبه القطا"نوع من الطير" من وقع دوابهم، فمرت على قوم حذامِ قِطَعا قِطعا، فخرجت حذامِ إلى قومها فقالت:
ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا ... فلو ترك القطا ليلا لناما
فقال زوجها:إذا قالت حَذَامِ فصدقوها ... فإن القول ما قالت حَذَامِ
فارتحلوا حتى اعتصموا بالجبل، فيئس منهم أصحاب عاطس الحميري فرجعوا، وهكذا نجا قومها بسبب ذكائها وفطنتها..

[22] – ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2،ص348

[23] – ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعرج، ص ص 348 – 349

[24] – المصدر نفسه ج2،ص349

[25] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب،ص600

[26] – حازم القرطاجني:منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي للتوزيع والنشر ، ص374

[27] – ينظر في تفصيلها: المصدر نفسه، ص374–375

[28] – حازم القرطاجني:منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص379

[29] – محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب،ص257

[30] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص577